# تجاه البحر

ذهبتُ الى الاسكندرية أصطاف . . . أستغفر الله ! كبُرَتْ كلمة الاصطياف بواسع معناها على ما يمكنني من سوانح الفراغ

بل ذهبت لقضاء أيامٍ ألتمسُ فيها راحةً من عناء الأعمال . فلماَّ بلغتُ النَزَلَ كان أوَّل مطلبٍ لي أن أرى البحر ؛ فتمشيت اليهِ،وحاذيت إفريزَهُ الجديد ، متخطرًا على رَسلي ، حتى انتهيتُ الى حدّ الرصيفِ غرباً فعمدتُ الى صخرةٍ وثويتُ عليها

ثويتُ مفترجاً متخلياً متروّحاً

غير أني لم ألبث أن وجدتُني قد أُخِذْت

أُخِذْت بمحاسن ما أرى ، واغتربتُ عن نفسي ساعةً . فلماَّ عدتُ من غربتي ، حسبتُني هيكلاً يتلهَّب بين تلك البسطةِ المائيَّةِ التي تحيطُ بي

لم يكن إلاَّ أن رسوتُ بجسمي مطِلاًّ على ذلك الفضاء المتحشرج اللّيّن ، المتضرّب المتلوّن ، حتى مضى نظري طافياً فوق اللجج ، طاوياً أبعادها ، ملماًّ بآفاقها . وتدافعت خواطري متخذةً من أشعة النظرِ أسباباً ترتقي عليها أو سفائن تستقلُّها

فارَقَتْ جسمي كما تفارقُ النحلُ الخليَّة ، وانصرفتْ أشتاتاً بين السماء والماء

إنَّ للخواطر جنىً عذباً تجنيهِ من آيات الماء الملحِ . . جنى معهُ

التعب ، وتعبهُ هو الراحة ، على حدّ قول القائل[1]

إنما الراحـة تبديـــلٌ لنوع التعَبِ
والتـداوي نَصَبٌ　　يُشفى بهِ من نَصَبِ

ما صفةُ ذلك الجنى . . ؟

لا تكلّفوها شاعراً قديراً ، ولا كاتباً نحريراً ، ولا حكيماً خبيراً ؛ بل ليسأل كلٌّ منكم نفسهُ عما أحسَّ وتصوَّر حين جلسَ الى البحر مثل تلك الجلسَةِ

جنيت من تلك الرحلة الفكرية تعباً مُريحاً ، وأردت تدوينَ ما كسبهُ ذهني من محصولها ، فعجزت عن أقلّهِ ، ولم يسعني سوى أن أتنفس الصعداء بهذا النداء :

أيها البحرُ الشائقُ المهيب !

ماذا يبلغ علمُ إنسانٍ جاهلٍ ضعيف من أسرار جلالك وجمالك ؟

اذا طغَت الموجــةُ من أمواجك فاستجمعَتْ خضراء ، وانحذفت رابيةً شماء ، تأخذ العنان بعفرتها البيضاء ، فأيّ فكرٍ يُكبرُها إكبارَها ، وإن هي منك إلاّ أُلعوبة تجدَّدُ كلَّ ثانيةٍ ، وأعجوبة بينا هي الأولى اذا هي الثانية

فاذا ملك النفسَ وملأَ الحسَّ إعظامُ تلك الآياتِ ، فما الذي تفعله الرَّوعةُ بالمتطلّع حين تهبطُ الرابيــة ، وتنفغر لها الهاوية ، فتقصف وهي متداعية ، حتى تَنِشَّ نشيشاً ، وقد تكسّرت الى ألوف أجزاء من الماس

---

(١) هو نفس صاحب المقالة

المتشعّب واللؤلوء والمختلف النضار الساكب أو المتبسّط والجمان المصوغ أو المتناثر

فاذا التمس العقلُ مزيداً وتعمّق الى مضطرَب الذرّيرات فما حيرتهُ ودهشتـهُ لدى كل قطرةٍ، وفي القطرة جُزَيئاتٌ لا تُعَدُّ: هذه تبسِمُ وردية، وتلك ترقص لازوردية؛ إِحداها تحجلُ محمرّة، وأُختها تزحفُ مخضرّة؛ بعضها ينظرُ باللُّجَين شزراً، وبعضها يُضْمِرُ النارَ ويصفو مفترّا

أيها البحر الشائقُ الجميلُ!

تجاهك لا يحسنُ إِلاَّ التعجُّبُ والسكوت؛ وانّ مع السرور برؤيتك لأسفاً دويّاً من أنك أنت أيضاً حيٌّ وأنت أيضاً ستموت

خليل مطران

# أين أقام في مصر

العلماء الذين صحبوا نابليون بوناپرت

كان مسيو جورج لجران Georges Legrain قد قدّم الى المجمع العلمي المصري في شهر مارس سنة ١٩١٣ درساً عن منزلٍ في القاهرة عاش فيهِ فريقٌ من العلماء الذين رافقوا بوناپرت الى مصر، وهذا المنزل لا يزال محفوظاً الى اليوم وهو قرب ميدان الناصرية في شارع الكومي عند آخر حارة حسن كاشف الواقعة بين مدرسة الناصرية ومكتب البوستة. وكان في سنة ١٧٩٨ إبان الحملة الفرنسوية مُلكاً لابراهيم السناري الأسود، وهو اليوم ملك الأوقاف. وقد تمنى مسيو لجران على المجمع العلمي المصري أن يتخذ الطرق اللازمة لحفظ هذا الأثر من الدمار. فأجيبت أمنيتهُ وعيّنت لجنة «حفظ الآثار العربية» مبلغاً من المال للشروع

فى ترميم المنزل . وفى آخر أغسطس الماضي اجتمع في المنزل نفسهِ فريقٌ من الجالية الفرنسية يتقدمهم مسيو فوشه وكيل معتمد فرنسة ومسيو كرترون قنصلها في مصر فألقى عليهم مسيو ليجران خطاباً [1] نلخصهُ في ما يأتي :

هذا المنزلُ القديم الآن كان حديث البناء عندما فتح القائد بونابرت مصر سنة ١٧٩٨ . فان البنَّائين والرسَّامين كانوا قد أتموا تشييدهُ وتقشيهُ منذ مدة يسيرة . وهـذه المِطفرة الناشفة الآن كانت تُلطّف الهواءَ ؛ والطنافس لثمينة تفرش هذا الرخام الأبيض ، والمقاعد حول هذه القاعة تنتظر سيّد المنزل ، وهو ابرهيم السنَّاري الأسود وكيل مراد بك الشهير الذى كان ينازع ابرهيم بك الكبير سيادة مصر في ذلك العهد

وكان ابرهيم السناري الأسود كما يدلُّ اسمهُ قاتم اللون أُميَـل الى السواد منهُ الى السمرة . ويؤخذ من تاريخ الجبرتي أنهُ وُلد في دنقله حوالي سنة ١٧٧٠ ؛ فهجر بلاده وهو يافع، ونزل النيل حتى بلغ القاهرة. فلم يجد فيها سبيلاً لكسب معاشه ، فتابع السير حتى المنصورة حيث اضطر ان يكون بواباً فى أحد المنازل

على أن ابرهيم كان على جانبٍ من الذكاء فتعلم القراءة والكتابة ثمَّ التركية والحساب . وانصرف من ثَمَّ الى الفنون السحرية ، فأصبح أشهر من « قال البخت » أو أعدَّ الطلاسم والتعاويذ . ونال حظوةً في عيني المملوك الشابوري ، فاستصحبهُ الى الصعيد ، حيث توصل ابراهيم الى التقرُّب من مراد بك . فكان ذلك بداية افترار ثغر الدهر لهُ . ولم يلبث

---

( ١ )　أهدى الينا صورة هذا الخطاب مسيو پول تريبيه صاحب مكتبة جيله :
Librairie Gillet, P. Tribier, Successeur

أن أصبح صديق سيده وموضع ثقتهِ ، فغمرهُ هذا بالهدايا والنعم . ولماً نزل مراد في الجيزة ( في السراي التي قامت محلها اليوم اصلاحية الاحداث على طريق الأهرام ) عيّنَ السناري وكيلاً له في القاهرة . فكان ابراهيم يفاوض أمراء المماليك باسم مولاه ، وصار منذ ذلك العهد مسموع الكلمة بعيد النفوذ

وكان له في القاهرة أبنية عديدة عند ما صحّت عزيمتهُ على بناء هذا المنزل الذي نحن فيهِ، ولم يدّخر وسيلةً في توفير أسباب الهناء والرخاء في منزله الجديد، ويمكننا أن نتثبّت ذلك بالعيان مماً بقي أمامنا من الآثار، وان كان قد ذهب معظمها ولعبت بهِ يدُ الدهر التي لا تُبقي ولا تَذَر .ولو قدرت هذا الجدران على الكلام لافادتنا أنهُ عند انتشار خبر وصول الفرنسيين الى القطر بقيادة الجنرال بونابرت واستيلائهم على الاسكندرية ، ترك مراد بك مزاحِمهُ ابراهيم بك يحشد رجاله بالقرب من بولاق ، وجمع هو جموعهُ وزحف لمقابلة الفاتح . وفي ١٤ يوليو ١٧٩٨ تقابل الفريقان في شبراخيت ، فولى المماليك الأدبار . وبعد ثمانية أيام نازلهم بونابرت في انبابة حيث توجد الآن المحطة الحالية . وفي مساء ذلك اليوم نام بونابرت في سراي مراد بك عدوّهِ المغلوب . أما مراد بك ففرَّ الى الصعيد؛ ولحق ابرهيم السناري بسيدهِ ولم يفارقهُ مدة الثلاث سنوات التي ظلّ يناوش الفرنسيين أثناءها . وهكذا ترك السناريّ المنزل الذي نحن فيهِ

وعهد بونابرت بعد انتصاره هذا الى لجنة في أن تختار منزلاً له

ولأركان حربهِ . فوقع اختيارهـا على منزل محمد بك الألفي وكان قد تمّ بناؤه منـذ ثلاثة أسابيع فقط ، وكان هذا المنزل قائماً شمالي ميدان الأزبكية بين فندق شبرد والنادي الفرنسي الحاليين . ولا صحـة لما يُروى عن أن في القاهرة اليوم منازل عديدة قـد سكن فيها بونابرت . ولكن المرجح أن القائد الفرنسي ذهب الى الديوان الأكبر الذي لا يزال منهُ بعض حجر في شارع الرّويعي وشارع البواكي فوق محل سبيرو؛ وقد زار بونابرت أيضاً منزل الشيخ السادات والشيخ البكري ، ولكني لم أجد قط ما يدلّ على أنهُ اتخذ لسكنه محلاً غير منزل الفي بك

أمّا الحاشية العسكرية والملكية فقـد اتخذت لسكناها سرايات البكوات والمماليك حول الأزبكية ، وقد درست آثارها كلها

وكان مع الحملة العسكرية بعثة علمية مؤلفة من ١٣٥ عضواً ولم يكن بدٌّ من ايجاد منازل لهم وللمجمع العلميّ المصريّ الذي ألّفوه . فوقّع بونابرت أمراً صريحاً بهذا المعنى يقضي باسكانهم بقرب المعسكر العام بالأزبكية . ولا ندري ما الذي حال دون تنفيذ ذلك الأمر . على أن المقرّر أن « مونج » و « برتوله » و « كافارلي » قصدوا الى السيدة زينب ؛ واحتلوا منازل عديدة كان قد تركها المماليك أنصار مراد بك

وكان أجمل هذه البنايات منزل حسن بك الكاشف الذي قامت على أنقاضهِ مدرسة الناصرية الحاليـة . وكان تجاه هذا المنزل قصرٌ فخم لقاسم بك حيث يوجد الآن مكتب البريد الجديد ، ومن الجهة الثانية للشارع كانت حديقة متسعة الأطراف والى جانبها سراي لعلي بك وقد

محا معولَ الهادمين كل هذه الآثار، ولم يبقَ إلاَّ منزل ابراهيم السناري الذي نحن فيهِ الآن

هذه هي المنازل التي سكنها أعضاء لجنة العلوم والفنون التي رافقت الحملة الفرنسية . فاتخذ قصر حسن بك الكاشف مقرًّا للمجمع العلمي، وحوّلت حديقة قاسم بك الى معرض للتاريخ الطبيعي ، فجمع فيها العالم « جوفروى سانتهيلير » عدداً كبيرًا من الحيوانات ، واستنبت البذور التي قد استحضرها من فرنسة . وكان هناك أيضاً مكتبة عمومية يرتادها من يشاء ، ومعامل كيماوية كان يُجري فيها العالم برتوله تجاربهُ ويلقي دروسهُ ، فأمّها الكثيرون من الوطنيين وأخذوا يدرسون مدنية الغرب . وأقام « كونته » الى جانب المعامل ورشاً أخرجت للمستعمرة الجديدة كل ما تحتاجهُ من آلاتٍ وأدواتٍ ومعدّات . وكان قصر قاسم بك من نصيب المغني « ڤيلوتو » الذي درس أصول الموسيقى العربية على أربابها ، وألّف فيها وصنّف

وسكن سائر علماء الحملة من فلكيين ومهندسين ومستشرقين وغيرهم حول تلك البقعة

أما منزل السناري هذا فوضع تحت تصرُّف المصوّر « رينو » لأن هذه القاعة الفسيحة كانت في غاية الموافقة . وكان بونابرت قد عهد الى ذلك المصوّر في تصوير أعيان البلاد ووجهائها . وفي هذا المكان رُسمت صور الشيخ السادات والشيخ البكري وغيرهما من أعيان الديوان الكبير والديوان الصغير . وكان نابوليون وهو منفيٌّ في جزيرة القديسة هيلانة

يذكر الرسوم البديعة التى زين بها المصوّر ريغو سراياه فى الأزبكية

وحدث لريغو فى هذا المنزل حوادث متنوّعة فكان السذّج ينظرون اليهِ كأنهُ ساحرٌ ويشيعون أن أعضاء بشرية معلقة الى حائط القاعة التى يسكنها مشيرين بذلك الى الصور العديدة التى كانت عنده . واتفق يوماً أنهُ أراد تصوير أحد النوبيين القادمين الى مصر ، فرضي النوبي بذلك ولما جلس المصوّر أمامهُ، ومزج الألوان ، وأخذ يرسم على القماش تقاطيع الرجل وهيئته ، قام هذا مذعوراً وخرج مستجيراً من شرّ ابليس

وكان جماعة العلماء يعيشون فى راحةٍ وصفاء منصرفين الى أبحاثهم ودروسهم ، الى أن حدثت فتنة القاهرة فى أواخر اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فوجدوا أنفسهم منفصلين عن المعسكر العام . وكان عندهم شيءٌ من السلاح للدفاع ، على أنهم كانوا قليلي الخبرة في استعماله ؛ ففكّروا هنيهة في أن يتركوا مقرّهم ويلجأُوا الى الأزبكية ، ولكنهم خافوا على المكتبة والمجموعات العلمية من أن تذهب فريسة الثائرين ، فآثروا البقاء حيث كانوا وإن عرّضوا حياتهم للخطر ، وتحصّنوا في المنازل وأقاموا الخفراء عند مدخل شارع حسن كاشف وقرب سبيل السيدة زينب ، الى أن تمكّن الجنرال « لانّ » من نجدتهم واعادة المياه الى مجاريها

وبعد سكون الفتنة رجع العلماء الى أعمالهم حتى يناير سنة ١٨٠٠ فسافروا الى الاسكندرية على نية الرجوع الى فرنسة بموجب اتفاقية العريش . فحال دون ذلك نقض الاتفاقية . ثم حدثت موقعة المطرية ،

وثورة القاهرة الكبرى وعودة ابراهيم بك الى العاصمة فاضطراه الى مغادرتها لمعاودة القتال . وهكذا رجع العلماء ثانيةً الى المنازل المتقدّم ذكرها، ولكنّ إقامتهم هذه المرة كانت أشبه شيء بالمنفى . وجاء الطاعون فزاد موقف الفرنسيين حرجاً . ولما غلبَ القائد « مينو » وتقهقر الى الاسكندرية، أصدر القائد « بليار » نائبه في القاهرة الأمر الى العلماء بأن يوافوه الى القلعة حيث يكونون بتأمنٍ من الطوارئ . فرفضوا بتاتاً لأنهم كانوا يشعرون بأنهم بين أصدقائهم الوطنيين في حرزٍ حريزٍ . ولم يذكر العلماء قطّ أنهم وجدوا بين المصريين رجلاً واحداً أساء اليهم أو لم يحسن معاملتهم . وظلوا كذلك الى أن جلت الحملة الفرنسية نهائياً عن الديار المصرية

أما ابرهيم السناري فانهُ عاد الى منزلهِ هذا، ولكنهُ لم يذُق فيهِ الراحة طويلاً، لأن القائد العثماني لم يدّخر وسعاً في إبادة سلطة المماليك وتوطيد سلطة الباب العالي في مصر ، وقد روى لنا الجبرتي مقتل السناري في الاسكندرية. ولكان هذا الرجل اليوم نسياً منسياً لولا ان فريقاً من العلماء احتلوا منزله ، وهم الذين عرّفوا مصر القديمة الى العالم، وذلك لخير العلم والإنسانية

سُئل اعرابيٌّ : هل لك في الزواج ؟
فقال : لو استطعتُ لطلقتُ نفسي